الأجداد يزدادون ضراوة

«هذه المسرحية تكمِّل برموزها، وأحداثها مسرحية «الجثة المطوقة» إنها تبلغ بأبطالها مرحلة الثورة المسلحة، الحرب التي تعبئ كل طاقات الشعب الجزائري لانتزاع حريته واستقلاله»

« المترجمة »

«حجرة في السجن، ساعة التفقد».

الحارس : محمد بن صالح

صوت في العتمة : حاضر.

الحارس : عمر عمَّار بن علي.

صوت في العتمة : حاضر.

الحارس : محمد بن أحمد.

صوت في العتمة : حاضر.

الحارس : مصطفى بن محمد.

صوت في العتمة : حاضر.

الحارس : هل عينتم مناوب الليلة؟

حسن : «مشيراً إلى مصطفى». هو. إنه متطوع.

الحارس : «لمصطفى» كيف ذلك؟ دائماً أنت؟ دائماً متطوع للسهر؟

مصطفى: ما دمت لا أستطيع النوم، فاني أسهر.

«ينسحب الحارس ويغلق الباب. المساجين نائمون على محاذاة الجدران. ملابسهم تحت رؤوسهم. همس. أصوات.

يشير إليهم مصطفى من مكانه بأن يسكتوا. بعد صمت قصير تتردد همسات جديدة. يقف حسن فجأة ويأخذ في السير موزعاً ركلاتٍ بقدميه. لا يتوصل إلا إلى إقامة صمت مؤقت. تستمر الهمسات».

حسن : وبعد، ألا تريدون إقفال هذه الأشداق؟

«هدوء مصطنع».

حسن : «لمصطفى» أشعل قداحتك.

«مصطفى يمتثل».

حسن : هل الجميع نائمون؟. حسناً، سأبدأ.

«يذرع حسن الغرفة عدة مرات بخطوات رياضية ماراً على بطون الرجال الذين ينامون جميعاً في وضع التهيؤ كما لو كانوا مستعدين لهذه الطقوس العقابية الغريبة. لا صوت ولا تنهد. يعود حسن إلى مكانه. صمت. لم يعد يُرى إلا لهب القداحة الذي يضيء مصطفى. قرعات صنج مديدة. يذهب حسن بخطوات ذئب لإيقاظ مصطفى. يهبُّ هذا واقفاً بحركة آلية ليقف موقف السلم القصير لحسن الذي بدأ يحك السقف بآلة حادة غير متقنة. تمر فترة. ينبلج الفجر. ضوء على حسن. يقفز نازلاً على قدميه».

مصطفى: لم ننته بعد. ولم يَحِن يومنا بعد.

حسن : «وهو ينزل على قدميه». سنستأنف العمل هذا المساء.

«يستيقظ الرجال. ظلام. قرعات صنج مديدة. نور يضيء حسن ومصطفى. يتكرر المشهد السابق بسرعة. يُرى حسن وهو يَفرغ من ثَقب السقف وقد أدخل رأسه في الفتحة حينما ينهض المساجين على أثر إشارة معينة ويحيطون بالمتآمرين».

المساجين : ونحن! ونحن! أتراكم تتركوننا هنا؟

مصطفى : «رافعاً عموده الفقري» كنت أعرف جيداً أنهم جميعاً على إطلاع..

حسن : «دون أن ينزل» أصغوا إليَّ. لديَّ ثلاثة أشياء أريد شرحها لكم. أولاً، يوجد هنا جواسيس. ومعنى ذلك أن تقريراً سيقدم بالحادث، أو أنه قد قدم بالفعل. ربما كانوا ينتظروننا عند باب الخروج. وهناك تعد الرؤوس المحترقة. في هذه الحالة سيصرعون عدداً منا ونحن بالجرم المشهود، ليخلوا مكاناً لغيرنا. إن السجون تعج بالنزلاء. ثانياً: لدينا من الوقت ما يكاد يكفي، والعمل لم ينته بعد. ما يزال أمامنا اجتياز الساحتين، والسور الكبير. إن الحبل الذي نملكه قصير جداً، فهل لديكم حبال أخرى؟.. ثالثاً:

احذروا الضوضاء. كلٌ يخرج بدوره، وعندما نصبح خارجاً سنتفرق؛ ولن يتعرف الواحد منا على الآخر.

«يشيع التردد بين الرجال. تُسمع كلمات: «إنه على حق»، أو «سيقضى علينا ثانية»، بينما يُرى حسن وهو يختفي في السقف. ظلام. نور. قرعات صنج مديدة. لا يرى من قلب السجن إلا واجهة جدار. تسمع خطى رجال عديدين تواكبهم ثلة من الجنود. تسير القافلة محاذية جدار السجن تحت أبصار الجوقة التي تجلس القرفصاء في مقدمة المسرح، بين الأطلال الخالدة التي تميّز الجزائر. تتكون الجوقة من رجال ونساء وهي تُمثل دوراً مبهماً. إنها تحاول أن تتوارى عن أعين الجنود وتثبت وجودها بقوة وجهاً لوجه أمام الجمهور».

المنشد : مزيد من السجناء.

الجوقة : مزيد من الجنود.

المنشد : إنهم يتجهون فوراً إلى الميدان المضلع.

الجوقة : الميدان المضلع؟..

المنشد : نعم هناك، حيث يتم الإعدام..

الجوقة : الميدان المضلع، الميدان المضلع، الميدان المضلع.

المنشد : لقد حسبوا كل شيء. إنهم يقضون وقتهم في اتخاذ التدابير ضدنا. إن للمضلع في الهندسة معاني كثيرة..

الجوقة : هناك، في المكان نفسه، حيث يجري تنفيذ الإعدام، هناك معسكر التجميع..

مصطفى: «يبرز من بين الجوقة مقنَّعاً.» هذا صحيح، لقد كنت هناك منذ عشرة أعوام.

المنشد : نحن أغنياء بالميادين المضلعة.

الجوقة : هذا فضلاً عن المقابر.

المنشد : نحن نتكلم عن الأراضي المهملة. أما السجن.. فهو ترف، بانتظار السلم.

المنشد : «بلهجة المعلم.» كل أرض هي ميدان مضلع. كل البلاد هي ميادين مضلعة مرسومة (مسجلة) على سطح الكرة الأرضية، هناك مضلعات منتظمة، مسدس مثلاً كفرنسا.. وهناك غير المنتظمة.

«صمت، قافلة جديدة من المساجين تجتاز المسرح.»

المنشد : مزيد من السجناء.

الجوقة : مزيد من الجنود.

المنشد : آه! لو أن السجناء يحملون أسلحة..

الجوقة : لو نستطيع تجريد الجنود من أسلحتهم!

«لدى هذه الكلمات، ينفصل حسن عن الجوقة وهو مقنَّع، ويُظهر سلاحاً مخبأ تحت سترته.»

الجوقة : «بدهشة شديدة» إنه مسلح!

حسن : هل تعرفون طاهر؟

المنشد : طاهر؟

الجوقة : آه، نعم، طاهر، طاهر، سي طاهر..

المنشد : سيدي طاهر.. إنه قلب حنون، يجد الفقراء عنده «الكسكس[١]» كل يوم. ولكنه يقطن بعيداً لسوء الحظ..

حسن : إذن أنتم تعرفون أين يقطن؟

«ظلام. نور. تختفي الجوقة. حسن ومصطفى في مقدمة المسرح بلباس ضباط من الجيش الفرنسي.»

حسن : في الحياة، وخاصةً في الحرب، مع الشعب أو أمام العدو، يتحتم علينا أن نمثل كل الأدوار..

مصطفى: إنك تملك حساً مسرحياً، أما أنا فلا. إن لي مشية دواب الحراثة.

---

(١) طعام مغربي معروف.

حسن : لا تتصنع البراءة. لقد ترقينا في الرتبة. سنكون في الجانب الآخر، ولكن لفترة قصيرة ريثما نقوم بزيارة سيدي طاهر. إنه رئيس رابطة أمينة «للوطن الأم[١]». إن ممتلكاته الواسعة تحرس ليلاً ونهاراً من قبل الجيش. نعم، إننا سنستقبل بالتكريم اللائق برتبنا العسكرية..

«ينتقل النور. يبدو مناوب يقوم بالحراسة. جنود يظهر عليهم الضجر، والغيظ لإلحاقهم بالخدمة لتأمين سلامة إحدى «الدمى» الاستعمارية. هذه الألعوبة هي طاهر الذي يتربع وسط المسرح، وهو يتناول فنجاناً من الشاي مع قطع صغيرة من الحلوى. وجهه مشرق، أصابعه مثقلة بالخواتم، عمامة ضخمة تجثم فوق رأسه. في إحدى يديه مروحة، وفي اليد الأخرى مسواك للأسنان. تتحرك أصابع رجليه في خف ناعم. يبدو هادئاً مطمئناً، يوحي بالوجاهة. إذا تعب من المروحة أو ضاق ذرعاً بالمسواك لجأ من وقت لآخر إلى المسبحة تحت عين الجنود الساخرة. تمر فترة تتوضح فيها شخصية طاهر بكل سماتها. ثم يدخل حسن ومصطفى. تؤدى لهما التحية العسكرية من قبل ثلة الجنود الواقفين في وضع التهيؤ. يتجهان رأساً إلى طاهر الذي يهبُّ واقفاً».

(١) إشارة إلى فرنسا. «المترجمة».

حسن ومصطفى «يسلمان»: سيدي الرئيس.

طاهر : «يجيب بكلتا يديه.» سيدي الكولونيل.. سيدي الكومندان..

مصطفى: إننا بحاجة إليك لأمر عاجل. نحن في اجتماع في غرفة الوالي لإعداد الانتخابات.

طاهر : «متلمظاً.» آه، نعم، هذا.. صحيح. إنها الانتخابات..

حسن : أنت رجلنا..

مصطفى: تفضل بسرعة، العربة في انتظارنا.

طاهر : «متظاهراً بالخجل» سيدي الكولونيل، سيدي الكومندان..

«ظلام. نور. المسرح خالٍ. يدخل حسن ومصطفى وهما يدفعان طاهر أمامهما.»

حسن : امشِ، أو انفق[1]..

مصطفى: يمكننا التوقف هُنا..

طاهر : سيدي الكولونيل.. سيدي الكومندان..

«يتوقفون، حسن يدير الاستجواب، مصطفى يقوم بالحراسة.»

حسن : لنبدأ من البداية. يُقال إنك تعرف كثيراً من النساء.

طاهر : «يعاوده الاطمئنان» إنها إذن قصة نساء؟

---

(١) نفقت الدابة: هلكت.

«عند هذه الكلمات يرمي حسن قبعته، ويتبعه مصطفى. يبقى طاهر مبهوتاً لحظة. ثم يأخذ في التلاوة وهو يرتجف.»

طاهر : لا إله إلا الله.. محمد رسول الله..

حسن : ستقوم بصلاتك فيما بعد. حدثنا عن هذه المرأة.

مصطفى: لا تتعب نفسك بالكذب؛ نحن نعرف..

طاهر : سي حسن، سي مصطفى، يا أولادي!

حسن : بلا تدجيل.. إننا نستطيع أن نقودك دائماً من أنفك أنت وأمثالك بقبعة وشارةٍ عسكرية. بالمناسبة..

«يقترب حسن من طاهر ويستل مديته، يعترضه مصطفى.»

حسن : لن تبدد الذخيرة سدىً، فإما أن نذبحه أو أن نشوهه. تذكَّرْ الأخضر!

مصطفى: إنني أتذكر. لقد كان معنا، في أول مرة سُجِنّا فيها أنا والأخضر، شخص جدع أنفه في قضية شرف. (إن الشعب يسمي الأنف دائماً في لغته العامية عضو الشرف، أو النيف كما يلفظونه.) ولكن جدع الأنف لم يُغيِّر منه شيئاً. لقد بقي دوماً بنفس الدناءة، لم يتطرق إليه الندم بسبب تبرير حقده في المرة السابقة، وانطلق يتمرغ في الوحل باحثاً عن قذارة جديدة.

أتعرف لماذا كان هناك في السجن، مع المناضلين؟

لقد سجن لأنه قتل طفلاً يهودياً عمره ثلاثة عشر عاماً. كان هذا اليهودي رفيقي ورفيق الأخضر في الطفولة. كان القذر يعتقد أنه، بهذه الفعلة، سيسترد اعتباره.. إذ من العسير استرداد أنفه المجدوع.

ستقول لي: عقاب هزيل. لم يكن لأحد أملٌ في تغيير هذا الوغد. كانوا يريدون أن يجعلوه عبرة. ولكن للشعب حاسة شم قوية. إنه سيدرك بفطرته عاجلاً أو آجلاً أننا قد أضعنا وقتنا. إذا لم يكن للخونة أنوف، فلماذا نحرمهم مما لا يملكون؟

حسن : ما أراك في النهاية إلاّ واعظاً بالعفو التام على ذكرى هذا اليهودي الصغير!

مصطفى: دعني استجوبه.

طاهر : «يذرف الدموع» آه، يا ولدي!

مصطفى: هذه المرأة.. هل رأيتها بعد ذلك.

طاهر : «مسايراً» من زمن بعيد.. بعيدٍ جداً..

مصطفى: أين هي؟

طاهر : والله.. لا أعرف. كونوا إنسانيين..

حسن : إنه سينتهي بإعطائنا درساً في الأخلاق.

مصطفى: أين هي؟

طاهر : لا أدري، لا أدري، ورأس ابني!

حسن : أي ابن؟

طاهر : «مستدركاً» الأصغر..

«يفتح حسن مديته.»

طاهر : إنها امرأة غريبة. يقولون إنها عاشت في فرنسا، في حانة، وعاشت هنا مع زنجي..

مصطفى: أكمل!

طاهر : أما الآن فإنها تحشر نفسها مع ابنها، وهو «شقي» صغير في أحد الوديان.

مصطفى: وادٍ؟

طاهر : إنهم يطلقون عليه وادي المرأة المتوحشة. نعم إنهم يروون أشياء كثيرة. يقولون إنها قد رَوَّضَتْ عقاباً.

حسن : عاد يظننا طفلاتٍ صغيرات.

طاهر : «منساقاً ببساطته القذرة، ولكنها بساطة حقيقية، أساسية» اسألوا! سيقصون عليكم قصة العُقَاب الذي يأتي لرؤيتها، والذي أطلقت عليه اسمه..

مصطفى: اسم من؟

طاهر : «قلقاً كأنما تكلم أكثر مما يجب» اسم...

مصطفى: «يشهر سلاحه» أي اسم؟..

طاهر : «أقرب إلى الموت منه إلى الحياة» الأخضر!

«عند هذه الكلمة يطلق مصطفى النار. يهوي طاهر صريعاً»

حسن : مرحى! لقد خلَّفتني بعيداً إلى الوراء. أنا أفهم ذلك. لقد أردت أن تثأر للأخضر بيدك. ولكنك ستندم على هذه الرصاصة.

«ظلام. قرعات صنج مديدة. نور. تستمر الحركة دون توقف، في ظل شجرة برتقال برية تغطي ثمارها الأرض، وتعطي جو المكان المفجع طابعه المتآخي، تقف امرأة مشعثة الشعر، حافية القدمين، لا تترك خمارها الأسود بحيث لا يمكن تمييز ملامحها إلا بصورة خاطفة، عندما تهتاج».

جوقة الصبايا: «تدخل المسرح» ها هي ذي.. ها هي ذي!

المنشدة : ها هي، شجرة البرتقال!

الجوقة : نعم، ها هي شجرة البرتقال، ذات الثمار المزة.. إنها الخصب العقيم لهذا البلد.

المنشدة : «مشيرةً إلى المرأة» وها هي ذي بذاتها. إنها ما تزال تحت سيطرة الشيطان.

الجوقة : «تنشد»

هيا بنا نحج

إلى وادي المرأة المتوحشة.

المرأة المتوحشة: «منتفضة»

ماذا تُرِدْنَ مني؟

المنشدة : نحن وحيدات.

الجوقة : نحن وحيدات.

الرجال في الحرب،

كلهم في الحرب، أو في السجن، أو في المنفى!

المرأة المتوحشة: «تفكر» وحيدات، لقد كنا دائماً كذلك..

ولكننا الآن وصلنا إلى نهاية الحساب

وهذه هي اللحظة الحاسمة التي لا تعود

الجوقة : آه، نعم، حدِّثينا، تكلمي!

المنشدة : نحن وحيدات، قولي لنا ماذا تحدثك به وحدتك!

المرأة المتوحشة: إنها اللحظة الحاسمة التي لا تعود، إنها الحرب، لننتزع حريتنا..

المنشدة : «بوجل» حريتنا؟

الجوقة : «بحماسة» نعم، نعم، نأخذْ حريتنا.

المرأة المتوحشة: لقد آن أن نضيفَ الضراوة إلى ميزتينا الاثنتين:

الحِداد، وحمل الأعباء.

لِنَسِرْ نحن أيضاً إلى القتال.

«فترة، المرأة المتوحشة تثبت بصرها في نقطة ما من الفضاء. تبدو وكأنها تنتظر إشارة. الجوقة التي تؤمن بالخوارق، تتعلق بنظرتها.»

المرأة المتوحشة: هل أنتن على استعداد؟ أَتُرِدْنَ أسلحة؟

المنشدة : «بقلق» أسلحة؟

الجوقة : «بهياج» نعم، أسلحة..

المرأة المتوحشة: أُنظرنَ! «تشير إلى صورة عُقَابٍ في صدر المسرح يحوم على واجهة جدار يقوم مقام الشاشة.»

الجوقة : الُعقَاب، الُعقَاب.

المرأة المتوحشة: حيث يحوم الُعقَاب، تكون ساحة الجثث غير بعيدة، وحيث ترقد الجثث ترقد الأسلحة.

«فترة، ظلام مطبق، لا يُرى إلا العُقاب الذي يحوم في دوائر كبيرة على الشاشة. ثم يسمع صوت رزين بعيد، تفصل بين عباراته قرعاتُ الصنوج.»

العُقَاب : أيتها الصبايا، إنكن لا تستطعن سماعي.
وأنا لا أَقْوَى على الكلام.
هذا القلب الفولاذي الذي يتحطم
قد فقدتُ مفتاحه
بين يدي هذه الساحرة التي تحرضكن.
لكَمْ كانت ماهرةً في التلاعب بمصيري!
لا أستطيع أن أقول
كم يكون الموت في الحب عطوفاً
لا ينبغي تعجُّلُ الخطى مع العذارى.
ولكن ما دمتن ذاهباتٍ إلى المذبحة
فإني لا أستطيع، أنا العقاب،
أن أحوِّلكن عما تردِنَ.
سأسهر، لأختطفكنَّ من ثعبان القبر.
من جليد العَدَم في مسرحية الجثث المجهولة.
وآمل أن أنقضَّ قريباً على المتوحشة، بعد أن أتخلص

من الأجنحة التي توهنني.

حينئذ، لن أضطر للنهوض.

بعد أن أكون قد انتزعتُ نفَسَها الأخير.

هكذا كانت، وهكذا ستبقى الخاتمة الوحيدة التي أرغب فيها..

طقس معجز، عرائسي وجنائزي

حيث تُرَدُّ الروح إلى المختفي

وتولد الأرملة من جديد.

«فترة. نور ضعيف على الجوقة الخائفة التي تهمس.»

المنشدة : ما أغربَ هذا الطائر!

الجوقة : لم نره عن قرب مثل اليوم.

«يزداد الخوف بين جوقة الصبايا اللواتي يتزاحمن حول المرأة المتوحشة الصامتة، والتي تبدو كأنها غائبة تحت شجرة البرتقال.»

العُقَاب : واأسفاه! عبثاً أُحاولُ أن احتفظ بأبعادي الشاسعة

وأن أبقى في لغزي.

إني أوحي بالرعب.

لماذا لا نستطيع ونحن على الكوكب نفسه أن نشعر شعوراً مشتركاً بالسفر الخليط؟

الجوقة : «تترقب كلمة من المرأة المتوحشة.»

ما أغرب هذا الطائر! ما أغرب هذا الطائر!

المرأة المتوحشة: «تضحك بعصبية»

إنه يأتي من الشرق، ويستقر في الغرب، ذلك اللغز الشمسي، الصحراء مَقَرُّه الطبيعي.

وهو إلى ذلك نَحَّات كبير للهياكل العظمية. إن العقاب الأسود، والأبيض يعد نفسه فناناً..

العُقَاب : لا يهمني إنْ فاتكن سماعي فستتلَقَّيْنَ عن طريق صوت آخر جوابي الذي يحمل على اليأس. أيتها الصبايا، أيتها الصبايا المفتونات! هديتي إليكن أن أُسْلِمَ ذاكرتي للذبول، لأجلكن أيتها العذارى اللواتي جَعَلَتْكُنَّ الحرب، والمنفى، وحيدات لكي تستطيع الأسطورة أن تنزح الملح من ابتساماتكن الجاحدة. الملح الذي يهب الجرح طعمَ القوة.

أريد أن اقترب منكن أمام تلك «المنزوية» وتحت بصرها الجارح. وفي عصفة الرياح.

نعم، ها أنذا أهبط قابلاً للتجريح بشكل ساخر. وقد تَسَرَّبَتْ فيَّ من كل الجهات أضعف أفكارها. تسربت فيَّ زهراً وجذراً.

وها أنذا استيقظ، وقد التصقنا معاً كزوجين لا ينفصمان.
كل منا يمضي لياليه في أحلام الآخر.

«أثناء هذه النجوى، لا يتوقف العقاب عن التحويم. ترفع المرأة المتوحشة عينيها إليه متأثرة بما قال. وهي تظهر علامات اضطراب. يعكس العقاب ظله الضخم عند المقطع الأخير على الشاشة، وأجنحته مبسوطة.»

الجوقة : «مشدوهة» العُقَاب العُقَاب، إنه يهبط.

المنشدة : إنه يتردد في الهبوط.

الجوقة : إنه يتردد أيضاً في الابتعاد.

المنشدة : «بسخرية مصطنعة» لقد عبَّ كثيراً من الأثير.

«ظلام مطبق يلف كل شيء حتى الشاشة. لا يرى أي شيء.»

العُقَاب : من بين جميع النشوات.. أعرف النشوة الطاغية، القاتلة، ولكني أعود إلى النجمة المظلمة أفضي إليها بشكوكي. وأزمجر غير مفهوم نحو تلك التي لا يفهمها أحد، كما يكتشف المرء ضحية ظنها ميتة، وكما يتنفس المرء في العناق دماً حاراً مخيفاً لِشدة قربه وكأن المرء في الالتحام الجسدي، يحس أنه قد افترس نفسه في فم آخر.

«فترة. قرعات صنج. أنوار تسلط بقسوة على المرأة المتوحشة الراكعة التي تبدو أشد انطواءً على نفسها في خمارها الأسود، وسط الصبايا المضطربات. تنهض أخيراً وتصب لعناتها على العُقَاب رغم أن صورته لم تعد تُرَى على الشاشة.»

المرأة المتوحشة: كلا. أنا لا أبكي.

لقد أمضى حياته كقاطع طريق

كقاطع طريق فتَّاك.

لقد عاد خياله

وهو يهيم على وجهه من جديد في حرية مؤقتة.

لقد كسر كثيراً من الزنزانات ولم يفعل شيئاً سوى الهرب، مغادراً قبره كما كان يغادر سجنه من قبل، مضاعفاً دائماً عقوبته.

إن رأسه يتدحرج في قلبي محدثاً ضجيج سقوط أبدي

نعم، إن هذا الحجر الوحيد يكفي لرجمي.

إن جرماً من أجرام السماء يمسني ويرجمني.

إنه هو، إنه هو دائماً يعود إلى فضائه المنيع الذي لا يناله فيه قصاص.

إنه يثيرني في ظل وطن الأموات.

وكل ألوان الشؤم تأتي منه، من هناك...

جوقة العذارى: في ظل وطن الأموات..

«فترة. يظهر العقاب من جديد محوِّماً في دوائر كبيرة.»

العُقاب : لم يعد هناك حب، لم يبق هناك أحد، لم يبق إلا أنا..

لم يبق إلا أنا.. أنا طائر الموت، رسول الأجداد.

جوقة العذارى: «تهرب دون أن تغادر المسرح»

طائر الموت.. رسول الأجداد..

المرأة المتوحشة: «بتوسل» أيها العُقاب. ابتعد من هنا.

العقاب : آه، لو لم يرسلني قبلوت القديم، جدنا المشترك، لكنت وضعتُ حداً لهذا الإخلاص أثناء الفراق الذي يثير السخرية ولكن، عليَّ أن أقدم حساباً عن إحدى الجثث، وأعيد الأرملة إلى القبيلة، وأدلَّها على الطريق المشؤوم الذي يحاذي ساحة الجثث، «وهو يتجه نحو مغارة القبلوت وكل من يلوذ به». الويل لها إذا ما تأخرت! إنها ستجد هناك أكثر من عشيق، وأكثر من أخ، وسيتفاقم الخصام آنذاك ويتصاعد حتى الأجداد، حتى قبلوت الراقد في قبره، حتى الكارثة. أما أنا، وقد فتنت، فسوف أتقمص دور العشيق. وها إني أُمَدِّدُ قيدي

الطويل من جديد بعد أن رُدِدْتُ بمرارة إلى الحياة، هادماً حتى اللانهاية تلك الصورة النهائية العزيزة.

أنا لي قلب أيضاً. إنني كطائر أملك قلباً ثقيلاً، وبما أن النار تهددني فمن الممكن أن أنفجر وأنا في حومة الطيران حتى ولو اختطفني دوار الجو، ذلك الشبح الضاري، من يديْ هذه «العنيدة» وألقاني بعيداً..

جوقة العذارى: «تدور في حلقة، هازئة بالعُقاب» دوار الجو، دوار الحب، دوار الجو لا دواء له.

المرأة المتوحشة: «مذعورة» ابتعد أيها العقاب، أنا أعرف، أنا أعرف أنك الأخضر القديم. أنت الحيوان الهائل الغريب الذي اقتاتَ من جثته. أنت طائر الأجداد، نبعُ الدم الأسود.. أنتَ الطائر النهِم المطهّر الذي جعل غذاءه من جثث قبيلتنا كلها. أنت الأخضر القديم، الجثة المطوقة، التي يحوم طيفها كروح تبحث عن جسدٍ آخر...

العُقَاب : «ينحطُّ قليلاً من علوه» هذا الجسد الحي هو أنتِ.

جوقة العذارى: «مبتعدةً»

أي ميثاق يربط هذه المتوحشة بطائر الموت!

المرأة المتوحشة: من طول ما مكثتُ وحيدة، تعلمتُ،

في حالات ذعري،
لغةَ الأشباح.
وفي انتظار عودته، تعودتُ
الرعبَ، والشك..
إنه يحب أن يتنكر..
كالكحول الذي يلعب بالرؤوس
يعرف أن يسير في الأوردة
التي سوَّدها بضلاله
إنه يعرف أن يشرب معي
وينازعني سُمَّه.
لم يَدَعْ لي شيئاً.
إن طفله اليتيم، مثله، شَبَحٌ مصغَّر يذرع الطرقات..
لم يبق لي منه أدنى تذكار.

العُقَاب : أنا الذي فقدتُ بَصَري، لا أعرف من ينيرني.
أنا الذي تعذبني تلك المتوحشة بصمتها.
لم أعد أعرف كيف أختفي، ولا كيف أفرض رأيي.
قولوا لي: هل أنا ميتٌ حقّاً؟

لقد حاولتُ عَبَثاً أن أطير. إن شبحي يعيث في دم المرأة المتوحشة، وأنا سكران، سكران كما لم أكن في أي وقت آخر.

لم أحسَّ الحزنَ في خمرتي يوماً كما أحسه الآن.

حقّاً أيتها الصبايا.. إني أبلغ بنشوتي الأثير.

إن الفصول نفسها، بعد خريف غاصب كهذا، لم تعد تعرف كيف تتعاقب إلا في موكب فاجع.. لا بنفسجَ متوجعاً، يبقى عطره كعطرها على الدهر. إني أتهم بشدة، كما تتهم هي، كل تلك الدموع.. دموعها التي لا عدد لها..

ماسات العين التي تخلد في سهامها.

سواء بكت لحرمانها من الفريسة،

كما يفعل القرش،

أم لأنها تتصاعد فيَّ كالجثة!

الجوقة : إنه ينحطُّ من عليائه. لقد عبَّ كثيراً من الأثير، ذلك العُقاب الأسود، الأبيض.

العُقَاب : أيتها الصبايا، شريكات المتوحشة في نظراتها المجنونة.

أيتها المنسيات في منفاها المُدَوّي.

أتراني أرى جمالاً أشد سوءاً منكن في طريق العودة؟

أسوف أرى المترددة تحدد مطالبها؟

ولكن ماذا يجدي البعث لمن سيموت!.

على عتبة جنة مظلمة يرقبنا الشقاء القديم.

ما أكثر الذين طعنوا بالخناجر.

بين أولئك الذين خاطروا بأنفسهم.

ليروا «الأرض الموعودة»!!

ولكنَّ هذا الخنجر هو مفتاح «اللقيا» ..

«فترة.. ينخفض النور. رجلان متنكران يسيران متمسحين بواجهة الجدار، ويحجبان أثناء وقوفهما صورة العُقاب. يلقيان أسلحة باتجاه الجوقة. وبالمقابل، تلقي الصبايا مجوهراتهن، كدليل على التعاقد ويأخذن الأسلحة».

المنشدة : المجد، المجد لكم، أيها المحاربون الذين يحررون النساء!

الجوقة : المجد لكم، يا من تحسون آلام اللواتي يختبئن للوضع،

ويلقين بمجوهراتهن،

ليشاركن في القتال.

«عند هذه الكلمات تتجمع الصبايا بنظام، متهيئات للسير، ملتفتات نحو المرأة المتوحشة التي يبدو عليها التردد، وهي

معلقة البصر بصورة العقاب التي عادت إلى الشاشة. لم يعد الرجلان المتنكران يحولان بينها وبين الصورة. لقد انسحبا خلسةً بمحاذاة الجدار».

العُقاب : اذهبي، التقطي قمل الشعب بأصابعك الحانية.. واذهبي فكدِّري نومه من قبل حارسه.

المرأة المتوحشة: «تتقدم المجموعة»

ساذَجةٌ أسلحتنا.. ولكنها مخيفة، مخيفةٌ كالشعب الذي يندفع وقد أدركته النبوءة، نعم، سنغسل الهزيمة الطويلة.. وأرضنا التي عادت إلى الطفولة ستشتعل فيها حيويتها القديمة من جديد.

المنشدة : في كل مكان من وطننا تنتزَع الأرض وُتحرَّر.

حتى الجثث

تَسحَب الأرضَ إليها لتجعل منها دثاراً لها.

وعما قريب..

لن يجد أولئك الذين يظنون أنفسهم أحياء

أولئك الذين يعيشون على ظهورنا،

لن يجدوا مكاناً يرقدون فيه.

«تأخذ المجموعة مكانها رويداً رويداً على السطح الدائر. وتبدأ المسير، وهي ما تزال تنشد نشيد القتال».

المنشدة : «مطوية تحت عبء بندقيتها».

نحن اللواتي نتلقى في المقدمة

كل الضربات من أي مكان جاءت.

هذه الحملة القاتلة تثقل علينا، ويتحتم علينا

أن نحيا.

إننا نحمل معنا موكب القَتَلة الطويل.

كحربة تضطرب في صدورنا.

«طلقات نارية تشير إلى أن القتال قريب جداً.

يندفع رجال على المسرح يثبت من شاراتهم أنهم من جنود جيش التحرير الوطني. الرجال والنساء يتعانقون، وهم يتبادلون شتائم الدعابة والمزاح».

المنشد : «رجل»

سلامٌ عليك، أيها الجيش الصغير، الذي يضم العيون الكبيرة السوداء.

المنشدة : «صبية»

سلامٌ عليكم، أيها السادة قطاع الطرق

أراكم تمثلون دور الدرك؟

«فترة. ينتهي الترحيب. يعود الفريقان إلى السير كل مجموعة على حدة، يصبح صوت الجوقة من هنا وهناك رزيناً وقوراً».

جوقة الصبايا: لا تأملوا بعد اليوم في وقفة أجمل من هذه على الطريق. بأعينكم أنتم سيرى الوطن النور.

دَرِّبونا على أن نميز أهدافنا بين الكواكب، وفي الأدغال، حيث يبلغ وهج الصيف ذروته.

المنشد : «الرجل»

هل تُرِدْنَ الانضمام إلينا؟

المنشدة : «الفتاة»

في ساعةِ الفِداء

جمعتنا الأمة بشجاعة

«ينضم الفريقان بسرعة، ويبدأون السير».

الجوقة : «الرجال والنساء على التوالي».

وأخيراً، فإن العمالقة القادمين من الغابات قد ألقوا في النارِ السُّتُر المزيفة.

«يجتازون المسرح، وينخفض النور. نسمع طلقات نارية، تقترب أكثر فأكثر.

صيحات وتنهدات، صوت يردد من وقت لآخر كحكم قاطع هذه الجملة البسيطة:

هذه هي الحرب.

تعيدها الجوقة. وأخيراً، يخلو المسرح. فترة. قرعات صنج مديدة. حسن ومصطفى اللذان عادا إلى التنكر لا يزالان يذرعان المسرح يمثلان السير في الصحراء».

مصطفى: الشيء نفسه يتكرر دائماً. هؤلاء الثرثارون الدائمون ما ينفكوُن يرددون بأن الحرب قد انتهت. يحكون ذلك في المقاهي.

حسن : لا أهمية لذلك. لقد رأى شعبنا الكثير منهم. إنه يعرف بأن حرباً، كحربنا هذه، ما دامت لم تتوقف في يوم من الأيام فإنها لن تنتهي أبداً.

مصطفى: في هذه الصحراء حيث لا نملك شيئاً، حيث لا ملجأ يحمينا، حيث لا تساوي أساليب القتال التي نستخدمها شيئاً، ذلك لأننا نضطر للقتال في أرض مكشوفة عارية، وينتشر جيشٌ في وَضَح النهار أمام جيش آخر.. في هذه الصحراء التي لا نساوي فيها شيئاً،

والتي لم تقوَ أية إمبراطورية على أن تترك فيها أثراً..
لن تستطيع أية قوةٍ أن ترهبنا بعد الآن، ولا أن تبذر فينا الفساد.

إن من تحمَّل قنابل شمس الظهيرة لم يعد يخشى حملة البَعُوض.

حسن : أَليس من أخبار أخرى؟

مصطفى: لا جديد. لقد شاهد بعضُ البدو الرحَّل في الغرب، قرب الحدود، امرأة محجبةً بالسواد، مع نساءٍ أُخَر. كنَّ يتبعن قافلة. إني أعيد عليك ما سمعت، دون أن أضيف شيئاً.

حسن : وهذه القافلة.. هل اجتازت الحدود؟

مصطفى: من المحتمل.

حسن : لقد أخطأنا إذ تركناهن دون حماية. إن المغرب الكبير لم يتحقق بعد.

مصطفى: تربطنا مع السلطات معاهدة، لا يستطيع جيش السلطان تجاهلها.

حسن : لا تنسَ أن عبد القادر(١) قد غُدِرَ به، وسُلِّمَ عند الحدود.

---

(١) إشارة إلى الأمير عبد القادر الجزائري. «المترجمة».

مصطفى: إن سلطان اليوم غيره بالأمس.

حسن : ليس عليك إلا أن تقرأ الجرائد.

مصطفى: لست من الذين يقرأون بين السطور.

«فترة. يغادر حسن ومصطفى المسرح، ينعكس النور من جديد على واجهة الجدار التي تقوم مقام الشاشة حيث يحوم العقاب، ثم على قافلة من النساء يقودها محارب قديم، تُعرَف بينهن المرأة المتوحشة من خمارها الأسود».

المحارب القديم: «عيناه مثبتتان على الشاشة». ابتعد أيها العقاب.

لسنا شيئاً بالنسبة لك، ولستَ شيئاً بالنسبة لنا..

أيها العُقاب، دع عنك ملاحقتنا..

ليس فينا من هو مُعَدٌّ للموت..

ابتعد، أيها العقاب.

«يحوِّم العقاب، يستمر في التحويم على الشاشة».

المحارب القديم: «بنفس الدور، وهو يشير إلى الصبايا».

لتُسْفِرْ كل الصبايا عن وجوههن.. أنظر أيها الطائر اللعين، أنظر إن حسان الحرب هؤلاء مخصصات للجيش الملكي. ينبغي أن نحسن مكافأة رجالنا على إخلاصهم في هذه الأوقات العصيبة. أما هذه التي هي

أشدهن تعقيداً «يشير إلى المرأة المتوحشة». فدعوا لي أمرها. لقد روَّضتُ فيما مضى مهراتٍ أشد شماساً منها، لا، ليس في قافلتي شيء لك أيها العقاب، أيها الطائر اللعين، ابتعد عن طريقي..

«ينفجر المحارب في الضحك، مرتاحاً إلى دعابته الفظة المبتذلة، أما العُقاب فيظل يحوم، في حين يتضاءل النور، وُتخيم القافلة لقضاء الليلة. وتحت جنح الغسق يقترب حسن ومصطفى بصمت. بينما يراقب حسن المحارب، وفي الوقت المناسب يطعنه بهدوء، دون أن يترك له وقتاً للتنهد. يتقدم مصطفى نحو المرأة المتوحشة الممددة على الأرض. تطلق صرخة قوية لدى رؤيته. تستيقظ الصبايا منتفضات، ويتبعثرن وهن يدسن على جسد المحارب، ينزع حسن قِناعَهُ ويعمل جاهداً لتهدئتهن، يجرهن نحو الكواليس. يبقى مصطفى وحده مع المرأة المتوحشة التي يبدو عليها عدم الشعور بوجوده، حتى بعد أن ينزع قناعه عنه، تثبت بصرها محدقة بواجهة الجدار التي تضاء فجأةً ويظهر عليها العُقَاب بحجم كبير. العقاب يصفق بأجنحته بشدة أمام هذه الخلوة التي لا يستطيع التدخل فيها».

المرأة المتوحشة: أخضر، أخضر! أنقذني، اخطفني..

لا أريد أن أقع في قبضة السلطان.

الذي خان جدُّه جدَّنا.

نعم، تذكَّرْ عبد القادر الذي غَدَر به، بعد سبعة عشر عاماً من الكفاح.

ذلك السلطانُ الذي أصابته الغيرة من انتصاراتنا نعم، إنه السلطان القديم

الذي يُطلق وريثُهُ اليوم كلابه في أعقابنا.

إنه يستغل حدادنا، كما يستغل فرصة الحرب ليتاجر بصحرائنا، على رفات شهدائنا بعد أن سلَّم للعدو أصابع يدنا الخمس، نعم قادتنا الخمسة الذين حبسوا بخطئه. نعم تذكر ذلك يا أخضر!

مصطفى: «على انفراد» ها أنذا أسمع ما يجلو ذاكرتي. إنها تنادي الأخضر.

أما أنا، فلا اسم لي، لقد اختفيت حقاً.

ليس عليَّ إلا أن أعود إلى التنكر.

ولكي لا يستمر شيء مما كان،

لكي لا يعرف المحراب غير زيارة الأفاعي.

يجب أن ألاحق امرأة أعز أصدقائي.

وعليَّ أنا الطريد أن أُسْمِعَ صوتي دائماً

عليَّ أن أُدنسَّ آثار الصديق

أن أزعج «الهاربة»، وحتى لكي أحميها، عليَّ أن ألبس القناع.

«ظلام. نور. حسن ومصطفى والمرأة المتوحشة والجوقة يبحثون جميعاً عن طريق في الصحراء. خلال سيرهم الطويل تسقط الصبايا منهكات. تبقى أحداهن واقفة. إنها هي التي تمثل دور المنشدة.

لقد أُعِدَّت للشعور الكامل بالمأساة. إنها تقص قبل أن تتهاوى بدورها في مقدمة المسرح قصة الثلاثي التائه في الصحراء، حسن، ومصطفى، والمرأة المتوحشة الذين، أثناء حديثها، يتصرفون وفقاً لما تكشفه وبتناسق تام، لأن حركاتهم يجب أن تبقى صامتة لتأخذ طابعاً بارزاً».

المنشدة : إنهم يسيرون بعد الاختطاف

يسيرون، ثلاثتهم معاً.

يطاردهم الجيش.

«طلقات نارية»

بلا ماء، بلا خبز، بلا ذخيرة..

يواصلون السير حتى يغيبوا عن الرشد.

وإن هذيان الصديقين

بحضور المرأة المتوحشة

سيثيرُ المنافسة بينهما.

«تفقد المرأة المتوحشة خمارها. لا تجد لديها القوة لاستعادته.

يتجلى عندئذ جمالها على أتمه».

تقول نظراتهما: ما أجمل الموت

في غيبوبةٍ أخرى. يا لها من غيبوبةٍ معزّية!

«يتعرفان على نجمة»

ما أجمل الانطفاءَ بين ذراعي

المرأة!

أما هي، فإنها تبدو أشد توحشاً من أي وقت مضى،

وها هي ذي تمشي على انفراد، في وَهج الشمس.

ملأى بالغطرسة والتحدي.

وفي الظلام مشيرة إلى رحابة ميدانهم المضلع

المزروع بالنجوم..

نعم، إنها تمشي، ولكن على انفراد، وتدور المأساة على غير علم منها.

«تمر فترة. يُرى حسن ومصطفى يتوقفان وجهاً لوجه».

المنشدة : «تسرع في إيقاعها».

بنفس النظرة، يصعق كل من الصديقين الآخر.

لقد أدرك كلٌّ منهما أن أحدهما يجب أن يسقط،

ويجمدان على الرمال كصخرتين.

ولكن هذا التحدي ليس سوى وداع

واعتراف صداقة أظلمت وهي في أوجها

ثم بين الدموع، نعم بين الدموع

أطلقا النار في وقت واحد..

بين الدموع..

«يطلق حسن ومصطفى النار كل منهما على الآخر. يسقط حسن. لم تدرك المرأة المتوحشة، التي كانت تسير على انفراد، شيئاً من هذا المشهد الذي مر كلمحة البرق. وحين ينبهها صوت الطلقات النارية تلتفت وتهوي أمام جسد حسن».

المنشدة : لقد صرعت بشكل لا يصدق كأنما بصدى دويّ الانفجار.

لقد انحنت المرأة المتوحشة.

لقد جثت على ركبتيها.

«فترة. يعالج مصطفى مسدسه الفارغ بحنق شديد. ثم يتناول المسدس الذي سقط من يد حسن فيرميه أرضاً بنفس الحنق الشديد. لأنه لم تبق فيهما أية رصاصة. يتأمل مصطفى طويلاً الجسدين والسلاحين المطروحين على الرمال.. بينما تعود صورة العُقاب إلى الظهور في حجم ضخم».

المنشدة : إنها ساعةُ العُقاب

إن الذي بقي على قيد الحياة لن يستطيع شيئاً.

لن يستطيع حتى أن يدير

أسلحةَ الموت إلى صدره.

يا لَلْسخرية التي تنتظر

من ضَيَّع رصاصةً

لقتل خائن! بينما كان يكفيه أن يجدعَ أنفه.

هذا التلميذ، هذا المبتدئ ترك على ظهره قتيلين.

حينما انتقم لصديق صرع صديقاً آخر، ولما ينته بعد.

الجوقة : إنها ساعةُ العُقَاب

المنشدة : في كل حرب يُقتل الإخوة.

كل حرب حقيقية تعيد إلى ذاكرتنا

أكلة لحوم البشر الذين يتزوجون محارمهم.

الجوقة : بلى، إن كل حرب تشبه حرب الإغريق من أجل هيلين.

إن أقصر طريق بين الحب والموت هي الحرب.

المنشدة : ومهما عدنا بعيداً إلى الوراء، لا نرى إلا امرأة متوحشةً، دأبها افتراسُ الرجال، بلا حقد، ولا رحمة، ويظل اختيارها بين الحياة والموت غامضاً.

إنها ترجع بنسبها إلى قبيلة النسر، والعُقاب.

«قرعات صنج. يضعف النور. تُرى مجموعة من الشيوخ تتجه إلى مقدمة المسرح حاملةً لافتةً يمكن أن يُقرأ عليها بأحرف بارزة:

«اللجنة المركزية للأجداد».

ظلام..

جوقة الأجداد: «في العتمة»

نحن الأجداد، نحن الذين نعيش في الماضي.

نحن أقوى من كل الحشود.

إن عددنا يزداد بلا انقطاع.

ونحن ما نزال بانتظار المزيد من المَدَد، لكي نتمكن من أن نفرضَ ثقلنا على هذا الكوكب، ونملي عليه شرائعنا.

نحن اللجنة المركزية للأجداد

يمرُّ ببالنا من حين لآخر أن نتحدث إلى الأرض، ونقول لأولانا: تشجعوا!

اتخذوا لكم مكاناً في مراكب الموت،

تعالوا، التحقوا بدوركم (بأرمادا) الأجداد،

إنها على وَشْكِ إن تستولي على الزمان، والمكان..

ولكنَّ الأحياء لا يعرفون كيف يحيون، ولا كيف يموتون.

إنهم لا يفكرون أبداً بالأجداد

المائلين أبداً فوق رؤوسهم.

على أن من يصغي جيداً لا يفوته أن يسمع.

إنَّ من لا يخشى النظر إلى الفراغ سيرى كيف تكبر النقطةُ السوداء التي تلازمه.

لقد اخترنا العُقاب

اخترناه ذكراً موثوقاً.

ليحمل رسائلنا..

نعم، اخترنا العُقَاب. إن مجرد مروره هو حكم بالإعدام. إنه يحلق فوق حشرجتكم ماضياً في تأملاته البعيدة التي لا تعرف الهدوء.

المنشدة : «في العتمة»

إنها ساعةُ العُقَاب.

«عند هذه الكلمات، ترتسم على الشاشة، تحت صورة العُقَاب، صورة صف من جنود العدو الذين يتفحصون الآفاق، قرعات صنج مديدة».

المنشدة : لدى رؤية الجنود، والُعَقاب الذي يحوِّم.

يعود إلى مصطفى صفاء ذهنه

إنه يتذكر أن حسن كان يملك مديةً.

فيبحثُ عنها في جيوب ضحيته.

ولكن، ماذا يستطيع السلاح الأبيض هنا؟

إنه لا يستطيع الرد على رشاشات فوج كامل

سينتشر حولنا في نصف دائرة.

ليس من وسيلة للهرب أو المراوغة.

في هذا الفضاء الشاسع من النور والرمال

لم يبق إلا هجوم اليأس

ولكن مصطفى لا يستطيع أن يجازف بمصير المرأة التي يحبها.

إنه لا يستطيع أن يتركها وشأنها

لا يستطيع، إيقاظها، وانتزاعها من العُقاب

لا يستطيع الدفاع عنها أمام المهاجمين

كما لا يستطيع أن يذعن لفكرة القتل

«ظلمة على الشاشة. ينتقل النور. يقترب مصطفى، والمدية في يده، من المرأة المتوحشة التي تقبع دون حراك. ولكن يبقى عاجزاً، عن اتخاذ الخطوة الحاسمة».

مصطفى: ها هي ذي الوردة التي أُخذ بخناقها تنحني على غصنها، في نهاية قدرها.. هل يجب أن أدع الوردة لعواصف الرمال، لقبلة العُقاب؟ أم يجب عليَّ أن أذبح الوردة، أو أرضى بتدنيسها؟ أيتها المرأة المتوحشة! أن أسفح قليلاً من دمك. تلك هي الجريمة الوحيدة التي أنا محروم منها.

لم أملك قط القدرة الكافية على التكتم أمام ظهور المنافسة المفاجئة. ولن أملك القدرة الكافية على إخفاء سِرِّي إذا ما قضيت عليك.

المنشدة : «تبدو وكأنها اختارت فكرة التضحية»

إنها لم تنل قصاصاً.

فاشتهت قسوتك، التي ستمر دون قصاص.

دعها تتحطم عليك.

مصطفى: «يتخبط في فكرة ضرورة القتل»

لعلَّني فريسة وسواس!

ولَعَلَها تنتظر مني ضربة الخلاص!

أي مجرم لا يخشى جريمةً كهذه من دون مذنب؟ أأقوى هنا على تشويه هذا الوجه الأنثوي، هذه الفتنة القاهرة؟

المنشدة : تَعْساً للفاتح، ولكل فتوحاته! تلك هي المرأة المتعبِة التي لا تُقْهر.. ولن يكون لحدادها نهاية..

«تتوضح صور الجنود على الشاشة، على حساب صورة العُقَاب الذي يضطرب أمام هذا التطفل على مملكته، على مشرحة الجثث المجهولة التي هي صحراؤه. لدى اقتراب الجنود، تنهض الصبايا اللواتي سقطن أثناء المسير بصعوبة، يمشين مترنحات ويلحقن بالمنشدة.

هنا تطغى الأسطورة على التاريخ.

إن الجوقة التي أُعيد تشكيلها في هذا البُحَران الجماعي ستصبح الشخصية الرئيسية في المأساة، لها الكلمة الأخيرة:

لا شيء يخص الفرد. يجب أن يتقاسم مع غيره كل شيء في الغموض الأرضي، قِناعه، وسرَّه، وأَهواءه. حتى ولو كان ذلك في مقابل حياته المقبلة. إن هذا أساسي لخاتمة المأساة حيث تتجلى الأسطورة أشد صدقاً، وأكثر سخاء، وأشد وضوحاً من التاريخ. إنه ثأر الكلمة القديمة، ثأر الشعر المسرحي على المسرح.

الجوقة التي تقف مواجهةَ الشاشة تسيطر على الوضع لتقدم للعالم الحديث القناعة التي فَقَدَ مَذَاقها».

الجوقة : «ترثي المرأة المتوحشة».

لنبكِ الفريسة التي تأخرت

معرَّضة لكثير من الجوارح

لقد انحط بسببها أكثر من عُقاب واحد من أفقه ولم يعد يحس أجنحته.

المنشدة : لنبكِ الفريسة التي تأخرت معرَّضة لكثير من الطيور الجوارح.

الجوقة : لنبكِ المجرم الذي لم يعد يعرف كيف يمسك سلاحه.

ليس له عند العشيقة إلا أمر غير متوقع، ولكنه لا يستطيع تنفيذه كما لا يستطيع الحياة بعد ذلك.

المنشدة : لنبكِ المجرم الذي لم يعد يعرف كيف يمسك سلاحه.

إن دموعنا لتبدو قاسيةً بالنسبة إليه خاصة.

إن الاحتقار المستعر للعذارى يبهَظُ ذراعه المترددة.

الجوقة : ولكنكِ أنت، أيتها المرأة المتوحشة. لقد فوجئتِ أثناء فرارك، وأُعدتِ إلى عذابك. لقد سلبكِ حُبُّ الرجال الذين كانوا يرفعونكِ عالياً أثناء قتالهم.

والذين لن تخفَّ أذرُعُهم لانتشالك من سقطتك.

المنشدة : لقد سلبكِ حب الرجال الذين كانوا يرفعونك عالياً في معاركهم. والذين لن تخِفَّ أذرعهم لانتشالك من سقطتك.

مصطفى: كالغازي يرسف في أغلال جريمته أتجنب، وأخشى هذه الفريسة التي تفر من البنان.

والتي أُطفئت في رماد الرجل الذي سبقني..

المنشدة : كالغازي يرسف في أغلال جريمته..

«صورة العُقاب تسيطر على المكان، إنه يسرع في طيرانه كأنه يريد أن يسبق الجنود».

الجوقة : «بقلق» العُقَاب، العُقاب الأسود والأبيض..

مصطفى: «يهز المرأة المتوحشة».

انهضي.. إن العُقاب يحوِّم فوقنا.

ولكنكِ لم تصبحي تحت رحمته بعد.

إن قلبك يضج. هذه ساعةُ العُقاب، ساعةُ النضال من أجل الحياة.

إني أسمع دمك يدوّي كعاصفة حَيْرى، قريبة من الذعر.

وها أنتِ مجروحة في الصميم، في متناول قبضة غاصبٍ جديد.

الجوقة : «برعب»

ها هو ذا الطائر الجارح الغَيُور. إنه يخطُّ حولنا دائرة الثارات.

المنشدة : «متوسلةً إلى الجوقة».

يا حمائمَ الشؤم والنحس!

اهربن فعين العُقَاب تكفي لتمزيقكن.

اهربن يا حمائمَ الشؤم،

الطليقات، الجريحات،

اهربن من الطقوس البغيضة للطائر الأرمل،

لا تنتظرن أن يختار.. ذلك العُقاب الحاقد.

«ينطفئ النور. ظلام دامس».

المنشدة : «بصوت فاجع»

العُقَاب، العُقَاب

العُقَاب والعشيق يتنازعان الميتة.

الجوقة : «في العتمة»

تشجَّعْنَ! إننا ندخل في الملحمة الضارية،

في جَلَبَة المنقار والمدية

اللذين يصطرعان.. اللذين يصطدمان..

لقد عاد الطائر الهائج أخيراً إلى التحليق..

إنه يُمطر قطراتٍ من الدم..

إنه يُمطر قطَرَات من الدم..

المنشدة : «في الظلمة دائماً».

لم يعد للرجل المقنَّع من شيء. لقد فقد حتى وجهه.

ليس عليه بعد اليوم أن يراقب العدوَّ الذي يتقدم.

وليس علينا نحن أيضاً إلاَّ أن نُطْلِق رصاصاتنا الأخيرة.

«وابلُ من الرصاص يُسمع دويُّه في الظلام.

صيحات حرب. يعود النور تدريجياً إلى المسرح، حيث يصوِّب الجنود نيرانهم على الجوقة المطوَّقة. تحت القناع الدامي، وقد أعمته ضَرَبات العُقاب، يتلمس طريقه باتجاه المرأة المتوحشة التي يتسلَّى الجنود في التحقق من موتها بركلات من أقدامهم.

ضابط يمسك بيديه قيداً مفتوحاً – على سبيل الدعاية – في طريق مصطفى الذي يمشي ويداه ممدودتان إلى الأمام. يطبق القيد على معصميه في اللحظة التي يريد فيها لمس جسد المرأة المتوحشة للمرة الأخيرة. يحدث كل ذلك في جو من البرود العام. ثم يعود العُقَاب إلى الظهور للمرة الأخيرة على المسرح. يضرب بجناحيه بينما يغادر الفوج جنوداً وأسرى، خشبة المسرح، تاركين الجثتين. ظلام مطبق. قرعات صنج. يُسمع صوت الجوقة من بعيد»

الجوقة : لا.. لن يموت..

إنه من أولئك الذين يقضون معظم أيام حياتهم في السجن، أو المصح..

ليست هذه هي المرة الأولى.

المنشدة : يحدُثُ دائماً أن تفرغَ الأسلحةُ من ذخيرتها.

لقد تكلم الدم أكثر مما ينبغي.

لم تعد العقبانُ تكفي لرفع الجثث

إن الأرض المسمَّدة تطالب بمزيد من الحراثة.

الجوقة : لا.. لن نموت هذه المرة، لن نموت هذه المرة. لم تعد المرأة المتوحشة موجودة. ولكن الحرب تجدها..

والحرب بحاجة إلينا.

المنشدة : الأجداد في ارتياح

منذ أن حللنا رموز رسالتهم.

منذ أن صهرنا أغلالهم؛

وعشنا حلمهم،

وسهرنا على نومهم.

ليس للأشباح أن ترفع رؤوسها بعد الآن..

الجوقة : الأجداد في ارتياح.

(انتهــت)